# بدو مصر فى ثورة ١٩١٩م

**أحمد الشربينى**[١]

تميــزت ثورة ١٩١٩م فى مصر عن غيرها من الثورات التى اندلعت فى أعقاب الحرب العالمية الأولى بالمنطقة العربية، فى أنها كانت ثورة شعبية غلب عليها الطابع السلمى. وقد انطلقــت هــذه الثورة يوم ٩ مارس وعمت كل أنحاء مصر بعد أن ألقت ســلطات الاحتلال البريطانى فى مصر القبض على بعض الساسة المصريين – وفى مقدمتهم سعد زغلول باشا – وشرعت فى نفيهم إلى خارج البلاد، فى محاولة للسيطرة على ما أسموه بالتهييج السياسى بالبلاد، المصاحب للاســتعدادات التى كانت تجرى بلندن وباريس للإعداد لتســويات ما بعد الحرب العالمية الأولى. وإذا كان الطلاب لهم الســبق فى الخروج إلى الشــارع المصرى، وإلهاب حماس الجماهير بشــكل دفعهم إلى النزول تباعا والمشــاركة فى الثورة، فقد شارك فى الثورة كل فئات وأطياف المجتمع المصرى، والذين تنوعت مشاركتهم، ما بين التظاهر والإضراب عن العمل، والاعتصام بمقار العمل.

وإذا كانت المدن المصرية إبان الثورة قد شهدت زخما ثوريا غير مسبوق فى مصر الحديثة، فــإن انخــراط جماعات أخرى فى الثورة من غير ســاكنيها، نقل الثــورة من القاهرة والمدن إلى أطراف المجتمع المصرى، بشــكل أدى إلى اتســاع مجالها، إلى حد جعل مهمة القوات البريطانية فى الســيطرة عليها صعبة ومعقدة، حتى إن أحد كبار المســئولين البريطانيين – الســير م. تشــتيهام Sir M. Cheetham, S القائم بالأعمال البريطانية فى مصر بعد رحيل الســير ريجنلد وينجت Sir R.Wingate – رأى بعد اندلاع الثورة بأقل من ثلاثة أســابيع، بأن «نوعا من التفاقم فى طبيعة الثورة الحالية أمر محتوم إن عاجلا أم عاجلا».

وقــد أثارت مشــاركة الفلاحين والبدو غــير المتوقعة فى ثــورة ١٩١٩م انتباه المراقبين للشــأن المصرى عندئذ، وبخاصة المسئولين البريطانيين، الذين هالهم تلك المشاركة التى لم تجعل الثورة تنتقل من القاهرة وحواضر الأقاليم إلى الأطراف فحســب، بل جعلت الوضع أثنــاء الثورة خارج المدن أكثر خطورة على الوجود البريطانى من المناطق الحضرية بما فيها

(١) أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر – كلية الآداب – جامعة القاهرة، كلية الآداب – جامعة الكويت.

العاصمــة، بعــد أن أجهدهم تعقب الثــوار من الفلاحين والبدو، ممن انتشــروا فى مناطق مفتوحة، تتسم بالعمق الاستراتيجى، وبخاصة البدو الذين وجدوا صعوبة فى ملاحقتهم فى الصحــراء. فإذا كانوا قــد نكلوا بقرى ثائرة كثيرة، بفرض الحصار عليها، وتفتيش منازلها فى غسق الليل، بل وإحراقها بمحتوياتها، فإنهم وجدوا مشاكلا كثيرة فى ملاحقة البدو، لوقف نشاطهم فى الثورة.

ولعل دور البدو المزعج والمكلف لسلطات الاحتلال البريطاني بمصر فى ثورة ١٩١٩م كان وراء اهتمام رجال الاحتلال بتشــويه هذا الدور، ومحاصرته، وذلك بالعمل على عزل البدو وإخراجهم من الثورة على وجه الســرعة، وذلك من خلال نشر بيانات ونداءات بالصحف لتوتير العلاقة بين البدو وغيرهم من الجماعات المصرية المســتقرة – والتى كانت نظرة كل منهما للأخر ما تزال بحاجة إلى بعض التصحيح – وإفقاد البدو الأرضية أو الحضانة التى تســهل لهم الانخراط فى عمليات مقاومة ســلطات الاحتلال، لاســيما بعد أن اهتموا بنقل ساحة مشاركتهم فى الثورة إلى المدن والقرى الأقرب إلى مواطنهم.

وتنوعت الأســاليب التى اتخذها رجال الاحتلال فى مصر لعزل البدو فى الثورة، منها إثارة الشــك والريبة فى نفوس الفلاحين وأصحاب المصالح الزراعية من تحركاتهم، عندما راحت بلاغاتهم التى كانت تنشر بالصحف اليومية، تصور تحركات البدو فى الثورة على أنها تحركات رعاع ومشاغبين.... حتى إن أحد هذه البلاغات اعتبر أن ثوار البحيرة ما هم إلا مجموعات من «المشاغبين الذين كان معظمهم من البدو».

واعتبرت بلاغات أخرى لبعض المســئولين البريطانيين من شــاركوا من البدو فى ثورة ١٩١٩م أصحاب عصابات... ففى ٢٨ مارس ١٩١٩م نشر بلاغ رسمى عن سلطات الاحتلال فى مصر ذهب إلى أن «العصابات المســلحة التى هجمت على أســيوط والتى كانت موزعة على طول النيل شمالا إلى ديروط كانت مؤلفة من البدو، وغيرهم من سكان المراكز البعيدة، تعززهم عناصر من الخارجين على القانون من القاطنين فى هذا الجزء من وادى النيل».

ونعتت بلاغات أخرى لمســئولين بريطانيين، من كانوا يشــاركون فى الثورة من البدو، بأنهــم جماعات تتحرك بدافع الســلب والنهب والســرقة، فذهب بــلاغ إلى أن البدو فى البحيرة، ومركز الوســطى ببنى سويف «انتهزوا فرصة الحالة.. الثورية... ليدخلوا المناطق المزروعة للسرقة والنهب».

وفى رسالة من القائم بالأعمال البريطانية فى مصر «تشيتهام» إلى اللورد كيرزون Earl Curzon فى ١٩ مارس ١٩١٩م ذهب إلى «أن هجمات البدو ترتب عليها سلب الدوائر الحكومية ومحطات السكك الحديدية، بعد أن درجوا على الإغارة على الدوائر الحكومية المدنية فى الأرياف بأعداد كبيرة والقيام بأعمال السلب والنهب وإتلاف المحاصيل فى مختلف المناطق، بشكل أدى إلى شيوع الفوضى، مع عجز البوليس عن مواجهة الثوار».

هذا فى الوقت الذى اتجهت فيه بلاغات أخرى لتصوير البدو فى ثورة ١٩١٩م، على أنهم مرتزقة، تستخدمهم الجماعة الوطنية للضغط على أصحاب المصالح حتى يقبلوا بالانخراط فى الثورة، أو إطلاق البدو عليهم، حتى إن القائم بالأعمال البريطانية فى مصر «تشيتهام» أرسل إلى اللورد كيرزون«أن الوطنيين كانوا يهددون رؤساء الإدارات المحلية ورجال البوليس، ليفاضلوا بين الانضمام إلى الحركة الوطنية، أو يأتون إليهم بالبدو لسلب المنطقة، وإشعال النار فى المبانى الحكومية، ونفذوا تهديدهم فى عدد كبير من الحالات، وكانت أجور هؤلاء البدو تدفع من قبل اللجنة الوطنية المركزية»، وأن الأمير عمر طوسون قام بدور مهم فى تنظيم العمليات التى يقوم بها البدو، بعد أن لوحظ أن مشايخ البدو كانوا يزورونه بصفة مستمرة لعدة أسابيع فى فندق شبرد بالقاهرة.

لكن الشواهد التاريخية التى تم فرزها حتى من بين رسائل وبلاغات المسئولين البريطانيين أنفسهم، تشير إلى أن تحرك البدو فى ثورة ١٩١٩م كان تحركا محسوبا، وينم عن إدراك، ووعى بالمسألة المصرية، وأبعادها، لاسيما بعد أن جاء هذا التحرك متناغما مع تحركات باقى القوى المصرية المشاركة بالثورة.

فهناك بلاغات لمسئولين بريطانيين تشير إلى أن البدو فى بعض المناطق بمصر كانوا يعملون لدفع غيرهم من البدو الذين ترددوا بشأن المشاركة فى الثورة، حتى ينخرطوا معهم فيها، فأشارت رسالة من اللورد اللنبى Sir E.Allenby إلى كيرزون لقيام بدو البحيرة بمحاولات لإقناع بدو الساحل بين الإسكندرية والسلوم، للانخراط فى أحداث الثورة.

وفى الوقت الذى كان يتحرك فيه بعض البدو لإشراك ذويهم فى الثورة، لتوسيع دائرتها بشكل يربك حسابات سلطات الاحتلال البريطانى فى مصر، وبخاصة فى المناطق التى تمثل ظهيرا لأهم المدن والسواحل المصرية، أخذت قطاعات من البدو مواقف معادية للثورة، حتى إن بعض هذه القطاعات لم يرفض الاستجابة لدعوات غيرهم من البدو

للمشاركة فى الثورة فحسب، بل راح يتعاون مع سلطات الاحتلال لحماية خطوط السكك الحديديــة، فالبدو الذين كانوا يســيطرون على المنطقة الممتدة بين الإســكندرية والســلوم لم يرفضوا دعوات بدو البحيرة للانخراط فى الثورة فحســب، بل قام كثير منهم بحراســة محطة ســكة حديد مريوط، كذلك قام العرب القاطنون بين أسوان والأقصر بتقديم المساعدة للأجهــزة الإداريــة فى مصر أثناء الثورة، حتى إنه تم الاســتعانة بعناصر منهم فى حماية السكة الحديد فى جنوب الأقصر، والذين كانوا من قبيلة البشارية التى كانت دائما موالية للسلطة، واستخدم منها أغلب قوات الهجانة.

وتراجع قطاعات من البدو عن المشــاركة بالثورة، والقبول بالتعاون مع الإدارة، لحماية خطوط الســكك الحديدية والمنشــآت العامة، يجعل الاتهامات التى كالها رجال الاحتلال للبدو الذين شاركوا فى الثورة فى غير محلها، لأنهم لو كانوا يشاركون فى الثورة كمرتزقة، أو بهدف الســلب والنهب لربما انســاقوا جميعا خلف هذه الأهداف، وما وجدنا قطاعات من البدو ترفض الانخراط فى الثورة.

ومما جعل نشــاط البدو فى ثورة ١٩١٩م أبعد ما يكون عن أعمال الســلب والنهب، إن تحركاتهم ارتبطت بتحركات الجماعة المصرية، وبخاصة الفلاحين، لاســيما بعد أن نقلوا نشــاطهم الثورى إلى المناطق ذات التأثير فى أداء سلطات الاحتلال، والتى تجاوزت القرى التــى تقع على أطراف الصحراء إلى مــدن الأقاليم الأقرب إلى مواطنهم، بمديريات الفيوم، وبنى ســويف، وجرجا، وقنا، وأسوان، وأســيوط، كذلك امتدت تحركات البدو فى ثورة ١٩١٩م إلى البحيرة، والإسكندرية، والمنوفية، والشرقية، والدقهلية.

وفــى تلك المناطق شــكل البدو مع الأهــالى وكافة القوى الاجتماعيــة المصرية وبخاصة الفلاحين، جبهة واحدة للقيام بأعمال للضغط على ســلطات الاحتلال، وإرباك حساباتها فى مصر. فقد أشارت بلاغات المسئولين البريطانيين أثناء الثورة أن «الهجمات التى تعرضت لها أسيوط وتوابعها قام بها البدو وغيرهم من سكان المراكز البعيدة، تعززهم العناصر التى لا تطيع قانونا». وأن «الهجمات على مديريات أقصى جنوب مصر من جرجا وقنا وأســوان، قــام بها البدو وعناصر عاديــة من المصريين»، كما «أن الهجمات التى اســتهدفت مناطق بشمال الشرقية والدقهلية والغربية وغرب البحيرة قام بها الرعاع من الفلاحين والبدو» وفى «الفيوم تسبب رجال البدو وبعض السكان فى إحداث أضرار بالغة فى عاصمة الإقليم والمدن

والمراكز المجاورة لها». كما كان المهاجمون «لمركز الوسطى – ببنى سويف – والقادمون من الفيوم والذين قدر عددهم بسبعة ألاف رجل كانوا من السكان والبدو».

وطالما كان البدو جزءا من الحراك الثورى الذى شهدته الساحة المصرية فى ١٩١٩م، فقد استهدفوا فى تحركاتهم إبان الثورة ما استهدفه غيرهم من المصريين خارج القاهرة، حيث استهدفوا الجسور ممثلة فى الطرق وخطوط السكك الحديدية ومحطاتها، ومراكز البوليس، والدواوين الإدارية، لتعطيل دولاب العمل، والحيل بين قوات الاحتلال والوصول إلى المناطق الثائرة، بعد أن أصبحت الجسور لا تمثل لهم إلا وسيلة تستخدمها سلطات الاحتلال، لقمعهم، وسرقة فائض إنتاجهم.

لهذا كانت الطرق ووسائل النقل والمواصلات بما فيها خطوط السكك الحديدية، والقطارات هدفا لتحركات البدو فى ثورة ١٩١٩م، لعزل القاهرة باعتبارها العاصمة عن جنوب مصر وشمالها، وقطع الإمدادات المختلفة عنها. وإضعاف قدرة سلطات الاحتلال فى السيطرة علي الثورة، بشل يدها فى نقل قواتها خارج القاهرة والإسكندرية.

لهذا هاجم البدو القطارات على خط سكك حديد القاهرة – أسوان، وتساوى فى ذلك القطارات التى كانت تتحرك فى الاتجاهين، ففى ١٨ مارس ١٩١٩م هاجموا قطارا كان قادما من الأقصر إلى القاهرة فى ديروط ودير مواس، كان يحمل بعض الضباط البريطانيين، «كما هاجموا فى الرقة القطار السريع القادم من القاهرة إلى أسوان ونهبت به عربة البريد، وأمتعة ركابه من الأوربيين، مما اضطره للعودة إلى القاهرة».

وفى الوقت الذى كانت تجرى فيه اعتداءات البدو على القطارات، كانوا يحطمون خطوط السكك الحديدية، حيث قاموا باقتلاع خطوط السكك الحديدية، فى أنحاء مديرية الفيوم حتى الوسطى بمديرية بنى سويف، وقطعوا خط السكك الحديدية بين الرقة وبنى سويف.

ولم يتوقف إتلاف خطوط السكك الحديدية على الفيوم والمناطق الجنوبية من مصر بل امتد إلى البحيرة، والمنوفية، والدقهلية. ففى «البحيرة قامت أعداد كبيرة من البدو الثائرين، بالهجوم على وسائل المواصلات فى القرى الكبيرة بالمنطقة»، وفى المنوفية «وقعت حوادث تخريب للسكة الحديدية... بعد أن بدأ البدو على حدودها يتفرقون... مجموعات كبيرة وشنوا هجمات على وسائل المواصلات فى القرى الكبيرة».

ولم تسلم مبانى محطات السكك الحديدية، من اعتداءات البدو، حتى إنها تعرضت للنهب والتدمير، بشكل أدى إلى تعطيل حركة القطارات.

وبلغ اهتمام البدو بتعطيل وسائل النقل والمواصلات أنهم لم يتلفوا خطوط السكك الحديدية الرئيسية فحسب، بل أتلفوا الفروع الجديدة فى المراكز البعيدة، ومعظم الطرق الزراعية، حتى أصبحت غير صالحة لنقل المحاصيل الزراعية، وتحتاج إلى وقت طويل لإصلاحها.

ولما كان تعطل وسائل النقل والمواصلات أثناء الثورة، يزعج سلطات الاحتلال البريطانى فى مصر، فقد اهتمت بالعمل على إعادتها وحمايتها على وجه السرعة بأى ثمن، حتى إنهم استخدموا سلاح الهجانة، والبدو فى بعض المناطق لحمايتها من الاعتداء عليها. لاسيما بعد أن اهتم البدو بمعاودة تعطيل خطوط السكك الحديدية التى كان يتم إصلاحها. حيث أشار القائم بالأعمال البريطانية فى مصر «تشيتهام» فى رسالة له إلى كيرزون فى ١٩ مارس ١٩١٩م إلى أن الجنود المصريين فى جنوب القاهرة قاموا بالمساعدة فى إصلاح خط السكك الحديدية المتجه إلى منطقة الوسطى، ولكن التقارير التى أعدها سلاح الطيران تشير إلى دمار جديد قام به البدو بصورة دائمة فى القرى.

وقد ربطت سلطات الاحتلال بين عودة الحركة إلى طبيعتها على خطوط السكك الحديدية ببعض المناطق بتوقف البدو عن مهاجمتها، حيث أشار بلاغ رسمى صادر عن سلطات الاحتلال البريطانى فى مصر فى ٢٥ مارس إلى «عودة المواصلات بالسكة الحديدية بين الوسطى والفيوم بعد أن ارتدع البدو، بسبب العقاب الصارم الذى لحقهم يوم ١٩مارس فى مدينة الفيوم».

وإلى جانب استهداف البدو فى ثورة ١٩١٩م لخطوط السكك الحديدية ومحطاتها وغيرها من الطرق الزراعية، فقد استهدفوا مراكز البوليس، والدوائر الحكومية الأخرى، بما فيها المحاكم لتعطيل جلساتها، ولاسيما بالمراكز النائية، حتى إنهم أجبروا من كانوا يعملون بها، على تسليم أسلحتهم، والانسحاب منها تحت ضغط هجماتهم. فقد حاصر البدو بمركز اطسا بالفيوم ديوان المركز وطالبوا رجال البوليس بتسليم أسلحتهم وخيولهم، ولما رفضوا تقاتلوا معهم، وفى ٢٢ مارس ١٩١٩م هاجم عدد كبير من السكان والبدو القادمين من الفيوم مركز الوسطى... وجردوا رجال البوليس من سلاحهم واستولوا عليه، «وفى ١٨ مارس قام البدو فى كوم حمادة بالبحيرة بهجوم عنيف على المركز»، «وفى مدينة إيتاى

البارود بالبحيرة، حاصر البدو المدينة حتى سقط مركز البوليس فى أيدى جموع الثائرين»، علاوة على ذلك كان البدو يقومون بالإغارة بأعداد كبيرة على الحكومة المدنية بالأرياف.

وأمام تكرار هجمات البدو على مراكز البوليس والدوائر الحكومية المدنية بالمراكز وبخاصة النائيــة، اتجهــت الحكومة عندئذ إلى نقل الموظفين إلى عواصــم المديريات لتأمينهم، ففى مديريــة الفيوم عندما تصاعدت هجمات البدو على مراكز البوليس والمقار الحكومية بأنحاء المديرية، لجأ موظفو مراكز المديرية إلى مدينة الفيوم ليكونوا بمأمن من هجمات البدو.

وكانت مهاجمة البدو لمراكز البوليس والاســتيلاء علي أســلحتها وراء تحول تظاهراتهم أثناء الثورة إلى مواجهات مســلحة مع القوات البريطانية، أوقعت قتلى كثر فى الجانبين، ففى ١٥ مارس ١٩١٩م حدث قتال فى بنى سويف فى جنوب الوسطى بين البدو وفصيلة صغيرة من الجنود الهنود الذين أرسلوا من القاهرة للمحافظة على النظام، وأصيب فى تلك المواجهات، قائد الفصيلة البريطانى بجراح بالغة، وفى أسيوط «اندلعت معارك شديدة بين الحاميــة المحلية ورجال البدو وغيرهم من الثائرين فى الفترة من ٢٣ و٢٥ مارس ١٩١٩م، ممــا أدى إلى انتشــار أعمال عنف ونهب وحرق طالت المبانــى الحكومية، ومخازن للمواد الغذائيــة». وفى «١٩ مــارس ١٩١٩م حدثت بمدينة الفيوم مواجهة بين القوات البريطانية والبدو، قتل وجرح فيها نحو أربعمائة شخص معظمهم من البدو».

ولعل العنف الذى صاحب المظاهرات التى شــارك فيها البدو كان وراء إصدار ســلطات الاحتــلال البريطانى فــى مصر «إنذرات للبدو – ٢٢ مارس ١٩١٩م – بالبقاء فى خيامهم» و«الالتزام بالهدوء والتوقف عن إطلاق النار على الجنود البريطانيين، حتى لا تضطر قواتهم لاســتخدام وســائل تؤدى إلى إزهاق أرواح كثير من الأبرياء. فقد وجه القائد العام للقوات البريطانية فى مصر – الجنرال واطســون – إنــذارا إلى أهالى الفيوم والوجه القبلى جاء فيه إنه «فى الأيام الأخيرة أطلق البدو النار على الجنود البريطانيين وقتلوا بعضهم، فإذا أطلق البدو النار على الجنود البريطانيين مرة أخرى، اتخذت فى الحال وســائل مشــددة قاهرة لابد أن تفضى إلى ضياع أرواح كثير من الأبرياء وهذا أخر إنذار».

كذلــك درج البدو أثناء الثــورة على إتلاف المحاصيل الزراعيــة فى مختلف المناطق، مــن خلال الاعتداء على عزب وممتلكات وأعيــان البلاد ممن لم يمدوا يد العون للثوار، أو ناهضوا الثورة. كما اســتهدفوا أشــغال الرى، حتى إن المندوب السامى البريطانى فى مصر

عندئـذ خشـى أن تكون قد دمرت. هذا علاوة على قطـع خطوط الهاتف بين مدن الأقاليم وبعضها البعض.

وكانت مشـاركة البدو فى ثـورة ١٩١٩م وراء تصاعد الأحداث بالمناطق التى كان للبدو فيها حضور ثورى قوى، كالفيوم والبحيرة، والإسكندرية، وغيرهم من المدن المصرية.

وكانـت الفيوم من أكثر المناطق سـخونة فى الثورة بعـد أن درج بدوها على الزحف على مراكزها وقراها، وبخاصة النائية منها، وراحوا يستهدفون مراكز البوليس ورجالها، الذين أجبروهم على الرحيل، والقبول بالانتقال إلى مدينة الفيوم، بحثا عن الأمان. كذلك هاجم بدو الفيوم وسائل المواصلات والمبانى الحكومية، فى الوقت الذى نقلوا فيه نشاطهم الثورى إلى المناطق الأخرى المحيطة بالفيوم، وتحديداً بنى سـويف، التى كانت الحالة بها فى بعض الأوقات تبدو شـديدة الحرج بسـبب وجود عدد كبير من رجال البدو فى المناطق المجاورة لها.

ومـع اسـتمرار تزايد أعداد البدو فـى قرى كوم حماده، والدلنجات، وحوش عيسـى وأبـو المطامير فى غرب البحـيرة، تحولت البحيرة إلى واحدة من أكثر مناطق ثورة ١٩١٩م سـخونة، حتى إن أحد رجال الاحتـلال البريطانى رأى أنها تعيش ثورة سـافرة للبدو، شـهدت إبانها مراكزها أعمال شـغب، وإحراق محطات السكك الحديدية، وإتلاف معظم الطرق الزراعية، وحصار المدن كإيتاى البارود، وكذلك حصار مراكز البوليس حتى سقوطها فى أيديهم، وبلغت ثورة البدو بالبحيرة حدا دفع سـلطات الاحتلال لإرسـال قوات كبيرة من الإسكندرية إلى دمنهور لمواجهة الموقف الخطير الذى نجم عن ثورة البدو فيها.

وكمـا نقـل البدو الذين تسـللوا إلى الفيوم نشـاطهم إلى المناطق المجـاورة للفيوم كبنى سويف، فقد قام البدو الذين تسللوا إلى البحيرة بنقل نشاطهم إلى مدينة الإسكندرية، التى قاموا باعتداءات عليها، لاسيما بعد أن بدأت تنطلق منها قوات للاحتلال لمواجهة الموقف الخطير فى دمنهور الناجم عن ثورتهم بالبحيرة.

كذلك امتدت مشـاركة البدو فى ثورة ١٩١٩م إلى الشـرقية والدقهلية والغربية، حتى أصبحت الحالة بالمراكز المتطرفة فى شمال الشـرقية والدقهلية والغربية فى دلتا مصر غير مرضية، فى الوقت الذى أدت فيه مشـاركة البدو فى أحداث الثورة بصعيد مصر إلى توتر الأحوال فى المنيا وأسيوط، وجرجا، وقنا، وأسوان.

ولعل شدة الموقف فى جنوب مصر بسبب تحركات البدو وتحديدا فى أسيوط، كان وراء اتجاه سلطات الاحتلال إلى تحويل أسيوط إلى مركز لقيادة القوات البريطانية فى الوجه القبلى، حتى هدأت الأحداث بها، فتم نقل مركز القيادة إلى سوهاج ثم أسوان.

ومشاركة البدو فى ثورة ١٩١٩م بفاعلية ليست فى حاجة لأن نبحث لها عن أسباب خاصة، كتلك التى كان يسعى رجال الاحتلال لتصديرها للمجتمع المصرى فى محاولة لعزلهم، وإخراجهم من الثورة، إذا ما نجحوا فى تشويه تحركات البدو فيها، وتشكيك المجتمعات المستقرة بكل مكوناتها فيهم.

لهذا يمكننا القول بأن الأسباب التى دفعت المصريين للانخراط فى ثورة ١٩١٩م هى نفسها التى دفعت البدو للمشاركة فى الثورة بكل المناطق المستقرة بالمدن والقرى التى تقع على أطراف الصحراء، والتى مكنتهم كثرتهم من نقل احتجاجاتهم إليها.

وبالطبع هذه المشاركة التى أزعجت سلطات الاحتلال البريطانى فى مصر، مردها أن البدو المصريين لم يكونوا يوما بمعزل عن المجتمع وهمومه، للارتباط التاريخى الواضح بينهم كجماعات وأطراف، وبين المناطق الحضرية والزراعية. هذا الارتباط يعود إلى استمرار اندماج جماعات من البادية فى المجتمع المستقر بريفه وحضره، والقبول بالجمع بين حياة الترحال والاستقرار، أو التضحية بحياة الترحال لحساب الزراعة والاستقرار، وقد جاء هذا الاندماج – أحيانا – فى إطار سياسة لتوطين البدو، أخذت شكلا واضحا فى العصر الحديث، ولاسيما فى القرن التاسع عشر، مما أدى إلى ظهور عائلات مستقرة امتلكت مساحات ضخمة من الأراضى الزراعية، حققت لها وزنا اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا فى المجتمع المصرى فى العصر الحديث، منها الشريعى، وأباظة، والسعدى، والباسل وغيرها. وبالطبع كان استقرار هذه العائلات وارتباط مصالحها الجديدة بالمجتمع فى الوقت الذى كانت تحتفظ فيه بعلاقات البداوة، جعل البدو دوما على مقربة مما كان يحدث بالمجتمع المصرى. لهذا لا نستغرب أن يكون للبدو دور فى أحداث الثورة العرابية، وبعد ذلك ثورة ١٩١٩م، التى كان حمد الباسل أحد أهم رموز المجتمع المصرى والبادية المصرية فيها.

وحمد الباسل (١٨٧١م – ١٩٤٠م) الذى نشأ نشأة بدوية، ينتمى إلى قبيلة الرماح بالفيوم، والتى عين عمدة لها خلفا لوالده محمود الباسل، ثم تخلى عن منصب العمدية لأخيه عبد الستار، بعد أن جذبته السياسة، وراح يستقر بالعاصمة، ليكون على مقربة من

صالوناتها، وفى عام ١٩١١م عين فى مجلس مديرية الفيوم، ثم انتخب عضوا فى الجمعية التشـريعية قبيل الحرب العالمية الأولى، وعندما تأسـس الوفد المصرى فى أعقاب الحرب اختير وكيلا له.

وكان نشـاط الباسل السياسى – كغيره من السياسيين المصريين – إبان الحرب العالمية الأولى، وراء اتجـاه سـلطات الاحتلال البريطانى فى مصر لوضعه تحت المراقبة، بسـبب عطفه وتأمره مع السنوسى.

وفـى أعقاب الحرب العالمية الأولى شـارك حمد الباسـل فى الحركة الوطنية وسـاند مجموعـة الوفـد منذ البدايـة، فكان ممن وقعوا علـى النداء الذى وجـه إلى ممثلى الدول الأجنبيـة فى مصر فى مطلع ديسـمبر ١٩١٨م، احتجاجا على الخطة التى اتخذت لمنع سفر وفد يمثل المصريين بمؤتمر الصلح «واحتجاجا على كل قرار يتخذ بشأن مستقبل مصر بدون أخذ رأى الأمة المصرية فيه».

وكان الباسـل من أكثر أعضاء الوفد المصرى جـرأة فى التحرك عندئذ حتى إنه تحمل مسـئولية الدعوة لعقد اجتماع للوفد بمنزله – بشـارع الداخلية تجاه بيت الأمة – فى ١٣ ينايـر ١٩١٩م يعد الأول من نوعه، لأنه أنهى مرحلـة من تاريخ الوفد كانت أعماله تعلن للأمة بطرق غير مباشـرة، وجاء الاجتماع ليعطى الوفد فرصة لأن يعلن عن نفسـه صراحة وبشـكل مباشـر، أدى إلى ازدياد التفاف الناس حوله وازدياد ثقتهم به، فى الوقت الذى أدى فيـه إلى ازديـاد الـروح المعنوية للأمـة، وازدياد معرفة الأجانب فـى مصر بالحركة الوطنية، وأغراضها، ووسائلها حتى يطمئنوا إليها. وقد دعا الباسل إلى هذا الاجتماع نفرا كبـيرا من أعضاء الجمعية التشـريعية، والهيئات النيابية الأخـرى، والعظماء وكبار ذوى الآراء، وفى هذا الاجتماع ألقى سـعد زغلول خطبة هى أول خطبة سياسـية له بعد تأليف الوفد، والتى شكر فيها حمد الباسل على أن هيأ له هذه الفرصة.

ولعل نشـاط حمد الباسـل جعلـه محل اهتمام رجـال الاحتلال، الذيـن اعتبروه من المحرضين، والمهيجين السياسيين، وأحد زعماء الإثارة الوطنية من حملة الباشاوية – سعد زغلـول، إسماعيل صدقى، محمد محمود، حمد الباسـل –، والذيـن تقرر إبعادهم خارج البلاد فى ٨ مارس ١٩١٩م.

وكما كان إلقاء القبض على الباشاوات الأربع الشرارة التى أشعلت مظاهرات الطلاب، وفجرت أحداث ثورة ١٩١٩م، بالعاصمة، فقد كان ذات الحدث وراء تحرك البدو للمشاركة

فى الثورة، باعتقال حمد الباسل رمز البادية، والرئيس الروحى لجماعات الأعراب فى مصر، والذى تمتع بشعبية عريضة ليس بين أفراد قبيلة الرماح بالفيوم، بل بين جميع أعراب المنطقة، الذين دانوا له بالولاء والطاعة، وإن كانت مشاركة البدو فى الثورة قد تأخرت بعض الشىء، بعد أن انتشرت الحالة الثورية بكل أنحاء مصر.

كذلك ارتبطت مشاركة البدو فى ثورة ١٩١٩م – وبشكل يعكس تحركهم المنظم فى إطار الجماعة الوطنية – بتأثرهم بالإجراءات التى اتخذتها سلطات الاحتلال لتدبير المواد الغذائية والأمتعة والمؤن والعتاد، وحتى الأعلاف التى كانت تخدم المجهود الحربى لبريطانيا فى مصر والمنطقة.، والتى انتشرت مراكز تجميعها بأنحاء مصر، حتى إن أسيوط أثناء ثورة ١٩١٩م كانت بها أهرام هائلة من التبن مكدسة لحساب السلطة العسكرية، فى انتظار ضغطها وكبسها فى مكبس أنشىء خصيصا لذلك، لتحويلها إلى قوالب مضغوطة للوقود.

وبقدر ما أثار استيلاء سلطات الاحتلال على أعلاف الفلاحين لحساب مجهودها الحربى، قد أثار البدو الذين كان بعضهم ينتقل سنويا إلى مناطق الأراضى الخصبة فى مواسم الجفاف لرعى أغنامهم وإبلهم وماعزهم على بقايا الحصاد الذى كانوا يشترونه من الفلاحين، والذى تأثر بشح الأعلاف إبان الحرب بسبب سياسة السلطات البريطانية فى مصر.

كذلك دفع الارتفاع فى أسعار السلع أثناء الحرب البدو للمشاركة فى الثورة، بعد أن أثر هذا الارتفاع فى قدرة معظم البدو على الوفاء باحتياجاتهم المحدودة من الملابس والتمر والدبس والقمح.

وكان استنكار البدو لأساليب جمع الدواب، وأعداد كبيرة من المصريين – بالخطف من الطرق والحقول والمنازل – للعمل بفرق العمل والنقل وراء امتعاضهم من الاحتلال ورموزه من رجال السلطة المحلية بالمدن، والذين كانوا لا يجدون غضاضة فى الاتفاق على محاصرة قرى وجمع خيرة أبنائها، ونقلهم إلى ساحات القتال بشكل قسرى، بما فى ذلك قرى الأطراف التى استقر بها البدو، وقد أشار أحد رجال الاحتلال فى مصر لأثر هذه السياسة فى نفوس المصريين ممن جندوا بفرق العمل والنقل، والذين بلغوا ٥٠٠ ألف متطوع، سيطر عليهم إحساس بالظلم والاستنكار، والذى وجد بدون شك طريقه للتنفيس والإعراب عنه فى حملة من الدمار العنيف بين الناس.

والملاحــظ أن أداء البــدو فى ثورة ١٩١٩م يعكس حالة المجتمع المصرى فى الثورة بكل مســتوياته، حيث مثلت البادية فى قيادة الثورة بمســتوييها الخارجى والداخلى، حيث كان حمد الباسل أحد من ألقى القبض عليهم من الأربعة الذين تم نفيهم إلى مالطة، وسافر ضمــن من ســافروا إلى باريس بعد أن تقرر الإفراج عنهم، وسمح للمصريين بالســفر لعرض قضيتهم على مؤتمر الصلح، وظل بالخارج يسعى مع غيره من أعضاء الوفد بحثا عن وسيلة لإنقاذ المســألة المصرية، حتى اختلف مع ســعد زغلول، وقرر العودة إلى مصر مع نفر من أعضاء الوفد. وفى الداخل كان عبد الستار الباسل يعمل على الأرض مع من كانوا يعملون من الساسة بالداخل، وإن كان قد مثل التيار المعتدل على الساحة المصرية عندئذ، وتجلى هذا فى توقيعه فى ٢٤ مارس ١٩١٩م على «النداء الشــهير إلى الأمة، والذى كان الموقعون عليه يدعونها إلى الإخلاد والهدوء والســكينة... وتجنب أى اعتداء وأن لا يخرج أحد فى أعماله عن حدود القوانين حتى لا يســد الطريق فى وجه كل الذين يخدمون الوطن بالطرق المشروعة، وأن يلتزم الجميع فى تصرفاته بالحكمة.

وبينمــا كان آل الباســل يمثلون البدو فى قيادة الثورة، ســطر البــدو بالأقاليم المصرية المختلفــة مع غيرهم من أهل القرى والمدن صفحة وطنية مشــرفة فى الثورة، لأن تظاهرات البدو ما كان لها أن تربك سلطات الاحتلال ما لم تتوفر للبدو الحضانة بالمناطق التى قرروا خوض المواجهة فيها مع ســلطات الاحتلال، فى الوقت الذى كانت المناطق التى شــارك فيها البدو بالثورة من أكثر المناطق سخونة وعنفا، بعد أن درج البدو على استخدام السلاح فى مواجهة قوات الاحتلال.

❑❑❑

## مصادر ومراجع الدراسة ومراجعها


– أحمد شفيق: حوليات مصر السياسية، جـ ٢، القاهرة ١٩٢٦م.

– حسن أحمد يوسف نصار: قبائل البدو فى مصر ١٨٤٨م – ١٩٥٢م، رسالة دكتوراه، جامعة عين شمس ١٩٨٧م.

– صلاح الراوى: الشعر البدوى فى مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٨م.

– عبد الرحمن الرافعى: ثورة ١٩١٩م تاريخ مصر القومى من ١٩١٤م إلى ١٩٢١م، جـ ١، ط ٣، مؤسسة دار الشعب القاهرة ١٩٦٨م.

– محمد على علوبة: ذكريات اجتماعية وسياسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٨م.

– عبد الرحمن فهمى: مذكرات عبد الرحمن فهمى «يوميات مصر السياسية» جـ ١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٨م.

– ٥٠ عاما على ثورة ١٩١٩م، مؤسسة الأهرام، القاهرة ١٩٦٩م.

– صحيفة الأخبار مارس ١٩١٩م – فبراير ١٩٢٢م.

– صحيفة المقطم مارس ١٩١٩م – فبراير ١٩٢٢م.


❑❑❑